نهج البلاغة

للإمَام عَليّ كَرّمَ اللّه وَجْهَه

تأليف

د. عمر فزوخ

الكتاب: نهج البلاغة "للإمَام عَليّ كَرّمَ الله وَجْهَه"

الكاتب: د. عمر فزوخ

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

فزوخ ، د. عمر

نهج البلاغة "للإمَام عَليّ كَرّمَ الله وَجْهَه" / د. عمر فزوخ

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٥٦ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٨١٧ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٣١ / ٢٠١٨

نهج البلاغة

للإمَام عَليّ كَرّمَ الله وَجْهَه

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الكلمة الأولى

مقاييس العظمة

يختلف الناس فيما بينهم عند النظر إلى العظماء، ويتخذ كل واحد منهم مقياساً أقرب إلى فهمه وأروج عند قومه. ومع أن بعض المقاييس لا تمت أحياناً إلى العظمة بصلة، فإنك تجدها رائجة فاشية.

لقد كنت منذ زمن طويل أحاول إخراج دراسة تتناول نهج البلاغة، ذلك الكتاب الذي يأتي – من حيث البلاغة والفصاحة والبيان – فى المرتبة الثالثة بعد القرآن والحديث. وقد كنت أحاول أن أرى فيه شخصية الإمام علي – ما أمكن – وأنظر منها إلى عناصر عظمته.

إن عناصر العظمة في الإمام علي – على ما رأيت – أربعة: أنه إمام عادل، وحكيم عالم، وخطيب بليغ، وشجاع في الحق. ولقد حاولت أن أبرز هذه العناصر في هذه الصفحات المعدودة جهدي، وكأني بمعترض علي غداً يقول: ولكنك لم تذكر أن الإمام علي خلع باب حصن خيبر!

أنا أعلم أنه فعل ذلك، ولكنني لا أرى فيه عنصراً للعظمة، ذلك لأن ما فعله هو وحده يمكن أن يفعله عشرة مجتمعون أو مائة أو ألف. ولكنك لا تستطيع أن ترى إمامًا عادلًا وحكيما عالماً بليغاً وسجاعاً في الحق تكاد تجتمع في كثيرين غير الإمام علي، إنها تعيا على أن تجتمع

إلا في نفر قليلين من عظماء الرجال. ولعلك لو بحثت عنها فى مائة ألف رجل لم تجدها متفرقة فيهم. أفليس من المعجز إذن أن تكون مجتمعة في واحد؟

ع.ف

١٨ ذي القعدة ١٣٦٣ و٤ تشرين الثاني ١٩٤٤

الإمام علي

موجز ترجمته وعناصر شخصيته وما تركته من الأثر في نهج البلاغة

قبل الخلافة

ولد علي بن أبي طالب نحو عام ٢٣ قبل الهجرة (٦٠٠م) وعمر الرسول يومذاك ثلاثون سنة. على أن الرسول كان قد تزوج قبل ذلك بخمس سنوات، تزوج خديجة بنت خويلد وغادر بيت عمه أبي طالب الذيكان قد كفله بعد موت جده عبد المطلب.

إن خروج الرسول من بيت أبي طالب لم يقطع الصلة بينهما، بل ظل أبو طالب يحمي محمداً ويعينه بكل سبيل. ولما صدع محمد بالدعوة (٦١٠م) كان علي صبياً له من العمر إحدى عشرة سنة في الاغلب. والإجماع بين رواة السيرة واقع على أن أول من استجاب لدعوة الرسول من الرجال صديقه أبو بكر عبد الله بن أبي قُحافة، ومن النساء زوجة خديجة، ومن الصبيان ابن عمه علي. ولعل المرء يستغرب إذا علم أن منزلة علي في أيام الرسول كانت منزلة رفيعة جداً بين الصحابة على الرغم من أنه لم يكن يوم وفاة الرسول يتجاوز الثلاثين سنة، بينما كان أبو بكر في الواحدة والستين، وعمر بن الخطاب في

الواحدة والخمسين، وعثمان بن عفان فى الستين. ولكن معاوية بن أبي سفيان كان يومذاك أصغر من علي بأربع سنوات، كان ابن ست وعشرين سنة. إلا أنه لم يكن بعد قد عظم واشتهر.

ومع أن حياة علي ابن أبي طالب في أيام الرسول تملأ الصفحات الكثار فإننا سنجتزىء بما يلي: علي بن أبي طالب (عم الرسول) وزوج ابنته فاطمة، ولقد كان مكيناً لدى الرسول. ولما توفي أبو طالب وتوفيت خديجة اشتد الأمر على المسلمين في مكة من ظلم قريش لهم فأمر الرسول المسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة، ولكنه أمرهم ان يهاجروا سراً وأن يهاجروا متفرقين لئلا يفطن المكيون لمقصدهم. ولما لم يبق أحد من المسلمين في مكة إلا الرسول وبعض كبار الصحابة من أصحاب الكلمة في مكة هاجر الرسول مع أبي بكر سراً وترك علياً في مكة ليرد ودائع للمكيين كانت عند الرسول وليسهر على بعض آل كبار الصحابة الذين هاجروا.

ولما بدأ الجهاد في الإسلام أبلى علي بن أبي طالب فيه بلاءً حسناً، ولكن الرسول كان إذا سار إلى الجهاد بنفسه ربما ترك علياً مكانه في المدينة. وكذلك كان علي مع غيره من الصحابة في كتبة الوحي الذين كان الرسول يملي عليهم ما يوحى به إليه من القرآن. أما الحديث عن بطولة علي بن أبي طالب وعن شجاعته وسعة علمه وكرم أخلاقه واستقامته فحديث يطول، اكتفى من التفصيل فيه بالإشارة إليه.

توفي الرسول (١١هـ، ٦٣٢م) فاختلفت الأحزاب الإسلامية في من يجب أن يتولى الخلافة، فقد أرادت كل أسرة وكل قبيلة أن يكون الخليفة منها لما في ذلك من القوة لها. وكانت تلك الأحزاب يومذاك ثلاثة:

(أ) الأنصار من الأوس والخزرج سكان المدينة، وحجتهم أنه لولاهم لما انتشرت الدعوة في بلاد العرب ولقضي عليها في مكة، وزعيم هؤلاء يومذاك سعد بن عبادة.

(ب) حزب المهاجرين أهل مكة وحجتهم أنهم أول الناس إسلاما وأن الرسول نفسه منهم.

(ج) وكان في القرشيين حزب منهم لا ينكر أن تكون الخلافة في المهاجرين ولكن يريدها من أسرة الرسول، في بني هاشم. بما أن الرسول لم يخلف أولاداً ذكوراً فقد أراد الهاشميون أن يكون الخليفة بعد الرسول ابن عمه علي بن أبي طالب.

في أثناء هذا الاختلاف – على ما نعرف من التاريخ – رأى عمر بن الخطاب من الحزم أن يحسم هذا الاختلاف بمبايعة أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة، أكبر الصحابة البارزين أو من أكبرهم سناً (١١هـ، ٦٣٢م). ولقد كان عمل عمر بن الخطاب عملاً سياسياً عظيما على أن ذلك أغضب بعض بني هاشم خاصة وأنصار بني هاشم عامة. إلا أن عليا نفسه لم يكن أقل حكمة ولا أقل حرضاً على وحدة المسلمين. ويظهر

من مراجعة التاريخ وتتبع حوادثه أن عليا كان يرى نفسه أهلاً للخلافة، وأكثر ما في نهج البلاغة يدل على أنه قد سيء لأنه لم ينتخب خليفة بعد الرسول مباشرة. ويرى الشيعة (أنصار علي بن أبي طالب من الهاشميين ومن غيرهم أيضا) أن علياً قد منع حقاً كان له دون سواه، ذا بينما يرى المهاجرون والأنصار (أهل مكة والمدينة) أن الخلافة منصب سياسي يزيد في قوة القبيلة التي يكون الخليفة منها، يرى الشيعة أن الخلافة منصب ديني وأن الرسول قد نص على أن تكون الإمامة (الخلافة) في علي ثم في أبنائه على ما هو معروف من التاريخ، ولكن علياً كرَّم الله وجهه لم يقاوم الخلفاء الراشدين قبله فقد كان ينفذ رغباتهم في الجهاد وكانوا هم يسألونه رأيه فينصحهم احسن النصيحة. ولقد خطر لعمر بن الخطاب وهو خليفة أن يذهب بنفسه على رأس جيش لحرب الفرس فنصحه علي بألا يفعل وقال له: لو مسّك سوء لما وجد المسلمون بعدك رجلا يرجعون إليه، ولكن ابعث لقتال الفرس رجلا مجرباً، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن كانت الأخرى (يعني قُتلت) كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين.

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر بن الخطاب (٢٣هـ، ٦٤٤م) لم يعين عمر خليفة بعده ولا ترك المسلمين يختارون من يشاءون، بل سمى ستة أشخاص من كبار الصحابة هم عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقّاص، وعثمان بن عفان، ثم جعل الأمر شورى بينهم فيجتمعون ويختارون من

بينهم خليفة. وكان قد سمى معهم ابنه عبد الله ولكنه اشترط ألا ينتخب خليفة.

كان علي بن أبي طالب أصغر رجال الشورى سناً، وكان أشخاص الشورى بعيدين عن أن ينتخبوا علياً خليفة لأسباب كثيرة، فاختاروا عثمان بن عفان الأموي وعمره يومذاك اثنتان وسبعون سنة. وإذا كان علي من قبل قد رضي أن يتقدمه في الخلافة أبو بكر وعمر؛ فالظاهر من التاريخ أنه لم يقبل أن يتقدمه الآن عثمان بن عفان لأن عثمان كان مرشح بني أمية. ثم أن القضية لم تبق قضية عثمان وعلي بل قضية بني هاشم وبني أمية: بني هاشم الذين نصروا الإسلام من أول يوم صدع فيه الرسول بالدعوة، ثم حاربوا في سبيلها بأموالهم وأنفسهم، وبني أمية الذين لم يدخلوا الإسلام إلا بعد أن فتح الرسول مكة (٨هـ، ٦٣٠م) وبعد أن اضطروا إلى أن يدخلوا في الإسلام.

وانتهز الأمويون فرصة وجود عثمان في الخلافة اثنتي عشرة سنة فكانوا يسيرون أمور الإمبراطورية سياسيا على ما يهوَوْن. ولما عوقب عثمان في ذلك قال: وما ينقم الناس مني أن أولي أهلي وذوي رحمي؟ ولا حاجة بنا إلى القول أن عليا لم يقف من عثمان موقفه من أبي بكر وعمر.

وأخيراً عمت الفوضى حكم عثمان ونقمت عليه الأقطار الإسلامية لأسباب حقيقية وأسباب غير حقيقية، فجاءت وفود تلك الأقطار

وحاصرت عثمان في بيته ثم قتلته (١٨ ذي الحجة عام ٣٥) في حادث مؤسف، بعد أن أرسى بعض الصحابة أولادهم للدفاع عنه وأرسل علي ابنيه الحسن والحسين، ومن ذلك الحين ذرت العداوة قرنها بين بني أمية وبين بني هاشم.

ولم يكن في المسلمين يومذاك أحد أليق بالخلافة من علي فاختارته وفود الأقطار وبايعه المسلمون بعد أن حاول – على ما نعرف من التاريخ – أن يبقى في معزل عن شؤون الخلافة، ولكن لما قيل أن يكون خليفة عزم على أن يقوم بحقوق الخلافة حتى قيامهم باختيار خليفة.

بعد مبايعته بالخلافة

بدا للإمام علي بعد مبايعته بالخلافة أن يسير بالحزم ورأى أن يعزل بعض الولاة الذين لم يكن راضيا عنهم، ومنهم معاوية، إلا أن معاوية الذي كان قد أصبح واليا على الشام (سورية) منذ أيام عمر بن الخطاب، كان قد عمل على تثبيت سلطته وبسط نفوذه على الشام، ولذلك لم يقبل بأن يعتزل عمله، بل طلب من الإمام علي – بعد أن أصبح علي خليفة المسلمين – أن يقتص من الذين قتلوا عثمان.

وكان معاوية يود أن يخلق للإمام علي – بهذا الطلب – مشاكل، لا أن يطالب بدم عثمان. ذلك لأن الذين اشتركوا في مقتل الخليفة الأموي كانوا كثاراً ولأنهم كانوا – في مجموعهم – فوق ذلك أصحاب قوة

ونفوذ، فلم يكن من الحكمة السياسية أن يقتص الإمام علي منهم. وكان معاوية يعرف ذلك كله. واعتذر الإمام علي لذلك بقوله (ص ٣٤٧): «يا إخوتاه، لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي قوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم.. فهل ترون موضعا لقدرة على شيء تريدونه؟ فاصبروا حتى يهدأ الناس»

وأخيراً عزم معاوية على محاربة علي، ولكنه أراد أن يضعفه قبل ذاك، على ما نعرف في تاريخ الحرب والسياسة، فقد استطاع أن يثير بينه وبين طلحة والزبير وعائشة (أم المؤمنين وزوج رسول الله) حرب الجمل، وقال: إن ظفرت عائشة وأصحابها بعلي فقد كفيت منافسته. وإن ظفر علي بها وبأصحابها فإنه سيظفر بهم بعد أن يخسر كثيراً من قوته وجنده، وهكذا كان، فإن المعركة انجلت يوم الخميس في العاشر من جمادي الآخر عام ٣٦ (كانون الاول ٦٥٦) عن عشرة آلاف قتيل من الفريقين أو يزيدون. ولم يمهل معاوية الإمام علياً طويلا بعد معركة الجمل فبدأ بخلق المشاكل له في مصر ثم استولى عليها، وكذلك استبد بالشام. ولم يخف على الإمام علي أن الحرب واقعة بينه وبين معاوية لا محالة. ولكنه تعجل تلك الحرب ونقل عاصمته من المدينة المنورة – مدينة الرسول – في الحجاز إلى الكوفة في العراق ليكون أقرب إلى الشام إذا نشبت الحرب، وأخيراً التقى جيش معاوية بجيش الإمام علي في صفين قرب الكوفة (في ذي الحجة ٣٦، حزيران ٦٥٧). وتذكر أكثر المصادر أن جيش معاوية كاد ينهزم فأشار عمرو بن العاص – وزير معاوية وأحد دهاة العرب – على معاوية أن يرفع المصاحف على الرماح (كما فعلت عائشة

من قبل في معركة الجمل) ويدعو إلى تحكيم كتاب الله في ما شجر بين المسلمين من الخلاف.

أدرك الإمام علي أن تلك خدعة، ولكن جنده الذين كانوا قد سئموا الحرب بعد قتال دام ثلاثة أشهر، اضطروه إلى أن يقبل بوقف القتال وبالتحكيم، فأوقف القتال، وأراد كل فريق أن يختار حكماً، فاختار معاوية عمرًا بن العاص، وأراد الإمام علي أن يختار عبد الله بن عباس لأنه كفوء لعمرو بن العاص، ولكن أصحابه أبوْا ذلك لأنهم يريدون رجلا ألين منه ليشتري لهم السلم بكل ثمن ممكن. ولذلك وقع اختيارهم على عبد الله بن قيس المعروف بأبي موسى الأشعري، وهو رجل طيب القلب، ولكن ابن الطقطقي[١] يصفه بأنه «كان شيخاً مغفلاً». وفي ١٣ صفر سنة ٣٧ اتفق أبو موسى وعمرو بن العاص على أن يحكما القرآن في الخلاف الناشب بين المسلمين وكتباً بذلك «صحيفة». وبعد ستة أشهر (رمضان ٣٧ وشباط ٦٥٨) اجتمعا في أذرح في شرقي الشام (سورية) ونظرا في أمر الخلاف واتفقا فيما بينهما على أن يخلعا علياً ومعاوية من الخلافة ويتركا الأمر شورى بين المسلمين يولون عليهم من يشاؤون؛ فقال حيئذ أبو موسى لعمرو بن العاص: تقدم فقل ذلك للناس. فقال له عمرو: بل تقدم أنت؛ فصعد أبو موسى المنبر وقال: «لقد بحثنا فلم نجد أجدر لِلمّ شعث هذه الأمة من أن نخلع عليا ومعاوية ونجعل الأمر

[١] الفخري، المطبعة الرحمانية بمصر، ص ٦٧.

شورى بين المسلمين. وإني قد خلعتهما فاستقبلوا أمركم وولوا من شئتم».

عند هذا صعد عمرو المنبر وقال: «إن أبا موسى خلع صاحبه، وأنا أخلع من خلع صاحبي – معاوية – فإنه ولي ابن عفان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه». فأنكر أبو موسى على عمرو ذلك وعدّه خدعة، وانصرف أتباع الإمام علي ناقمين على أبي موسى، وانصرف أهل الشام فرحين. وكان أول ما فعل معاوية بعد ذلك أنه أعلن نفسه خليفة. وهكذا انقسم العالم الإسلامي بين خليفتين: الإمام علي في الشرق، في جزيرة العرب والعراق وفارس، ومعاوية في الغرب، الشام (سورية) ومصر.

كان جميع أهل الحجاز وأهل العراق وفارس يعتقدون أن الحق بجانب الإمام علي وأن معاوية أخذ الأمر خدعة ولكنهم كانوا – فيما يتعلق بالسياسة التي يجب أن ينتهجها الإمام علي تجاه معاوية – حزبين كبيرين.

أ) حزب سئم الحرب واكتفى بما أصيب به من القتل والبلاء فانطوى على كره لمعاوية وأهل الشام، ومضى يجادل عن حقه من الناحية الدينية والشرعية. هؤلاء هم سكان المدن في الأغلب والذين أصبحوا فيما بعد «الشيعة».

ب) حزب لم يشأ أن ينام على ضيم ولم ير في خدعة عمرو لأبي موسى مبرراً لأن يقبل الإمام علي بما حدث، فخاطب الإمام علياً بكثير

من الجرأة والتصلب وقال له: إما أن يكون معاوية أحق منك بالخلافة فاخلع نفسك منه واترك له الأمر كله، وإما أن تكون أنت صاحب الحق وهو المغتصب الظالم فسر بنا إليه نقاتله لنعيده إلى نصابه. هؤلاء هم سكان البادية في الأغلب، وهم الذين «خرجوا» فيما بعد من جيش الإمام علي فسماهم أعداؤهم «الخوارج». ولمالم يستطع الإمام علي أن يأخذ برأي الخوارج، لأن الشيعة يومذاك لم يكونوا يرون القتال «بعد أن قتل في صفين من كل بيت في الكوفة قتيل أو اثنان أو أكثر»، عده الخوارج «كافراً» وجعلوه هو ومعاوية – فيما يتعلق بالخلافة – في منزلة واحدة، ثم أخذوا يحاربونه.

مقتله

اجتمع[1] نفر من الخوارج بعد موسم الحج فتذاكروا أمر المسلمين فعابوهم وعابوا أعمالهم، ثم ذكروا إخوانهم من الخوارج الذين سقطوا قتلى في معركة النهروان بالبصرة في حرب الإمام علي فترحموا عليهم وقالوا: لو شرينا (بعنا) أنفسنا في سبيل الله فقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم البلاد والعباد وأخذنا بثأر إخواننا! ثم تعاقدوا على ذلك؛ فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي: "أنا أكفيكم عليًا". وقال البرك بن عبد الله التميمي: "أنا أكفيكم معاوية"، وقال عمرو بن بكر التميمي: "أنا أكفيكم عمرا بن العاص". ثم أنهم تواثقوا على الوفاء بذلك، وعلى أن يقوموا بعملهم هذا في ليلة واحدة: في ١٧ رمضان (سنة ٤٠هـ). ثم جاء عبد

[1] مقاتل الطالبين للأصفهاني (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٥٣هـ) ص ١٧– ٢٥ .

الرحمن بن ملجم إلى الكوفة واتصل بنفر من الخوارج واتفقوا على أن يكمنوا في الليلة المعينة في المسجد الجامع فإذا خرج الإمام علي إلى صلاة الصبح ثاروا به فقتلوه. وقد نفذ هؤلاء مؤامراتهم هذه، فقتل الامام علي كرم الله وجهه (٢٤ كانون الثاني ٦٦١) . ولكن الاضطراب الذي أراد الخوارج أن يسكن بقتل الإمام علي لم يسكن.

نهج البلاغة وخصائصه الفنية

«نهج البلاغة» هو مجموع ما وصل إلينا من الخطب والرسائل والأقوال المأثورة التي تروى للإمام علي كرم الله وجهه. هذه الخطب والرسائل والأقوال المأثورة جمعها الشريف الرضي المتوفي في سنة ٤٠٤ للهجرة (١٠١٣م) بعد التقصي والتحري، وقبل التقدم إلى إثبات الخصائص الفنية على ما تبدو في «نهج البلاغة» يجب أن ننظر في مجموع تلك الخطب والرسائل من حيث الرواية التاريخية. إننا إذا فعلنا ذلك ظهرت لنا ثلاثة أوجه:

أ) أن الشريف الرضي لم يستطع إثبات جميع رسائل الإمام علي وخطبه، لأن بعضها كان قد ضاع بتطاول الزمن عليه قبل عصره. حتى أن كثيراً من الخطب التي وصل إليها الشريف الرضي لم يصل إليها كاملة، ولذلك تجد أكثر الخطب المثبتة في نهج البلاغة مسبوقة بقول الشريف الرضي نفسه: «ومن خطبة له عليه السلام» مما يدل على أن هذه الخطب «لم تصل إلينا كاملة».

ب) هنالك مقاطع طويلة أو قصيرة في خطب نهج البلاغة تروى على وجهين مختلفين يتفقان في المعنى ولكن يختلفان في اللفظ، مما يدل على أن شيئا من ألفاظ تلك الخطب قد نسي الزمن واضطربت الذاكرة في روايته.

ج) هل هنالك في نهج البلاغة شيء ليس للإمام علي؟.. تجد في ناحية صغيرة من نهج البلاغة موقفين مختلفين: موقف يتجلى فيه النبل وكرم الخلق، وموقف فيه عصبية شديدة؛ فبينما ترى في نهج البلاغة[1] هذه الخطبة (وقد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام):

«إني أكره لكم أن تكويوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: "اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهجَ به»

ترى فيه أمثال هذه الأقوال: اعتراض الأشعث بن قيس الإمام علي ذات يوم في كلمة له، والإمام علي على المنبر في الكوفة فقال له الإمام علي (ص ٥٦–٥٧):

«ما يدريك ما عليّ مما لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين. حائك ابن حائك، منافق ابن كافر. والله لقد أسرك الكفر مرة والأسلام أخرى.»

وذكر الإمام علي يوما عمرو بن العاص فقال (١٥٢):

---

[1] بيروت، طبعة محيي الدين الخياط. ص ٤٦٠.

«عجبا لابن النابغة[1] يزعم لأهل الشام أنيّ دُعابة... »

وقال لرجل يوما (ص ٢٧٥): "يا ابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع...»

إننا إذا رجعنا البصر في أمثال هذه الشتائم وجب أن نرفع عنها الإمام علي، وأن ننزه لسانه الكريم عن ان ينطق بها. وكيف يجوز لنا أن نسمع قوله: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين...» ثم نرضى أن يروى له سب ولعن وألفاظ نابية؟.. على أن الفصل في ذلك ليس لي، وإن كنت أنا شخصيا أرفع عن ذلك قدر الإمام علي، ولكن الفصل في صحة نسبة هذه الأقوال إنما هو للسادة الأعلام علماء الشيعة والمجتهدين منهم.

ونأتي الآن إلى الخصائص الفنية الظاهرة في نهج البلاغة.

١) يأتي «نهج البلاغة» من حيث البلاغة في المرتبة الثالثة بعد القرآن الكريم؛ فالحديث الشريف، وإن ألفاظه وتراكيبه وما فيه من أوجه البلاغة وراء كل نقد وفوق كل استدراك. إنه نموذج للأسلوب المتين، وللصناعة المعنوية المتخيرة.

٢) يشمل نهج البلاغة ثلاثة مظاهر: الخطب والمواعظ، ثم الوصايا، ثم الرسائل. وهنالك حكم مفردة مجموعة في آخر نهج

[1] النابغة هي المرأة تتزين للرجال

البلاغة، ولكنها في الحقيقة حكم مستخرجة من الخطب والوصايا والمواعظ والرسائل.

٣) نهج البلاغة مسوق في أسلوب خطابي، ولا غرو فالإمام علي من مشاهير الخطباء، وفيه أحياناً شيء من الجدل ومن التحليل.

٤) جمل نهج البلاغة قوية متينة، ولكنها قصيرة في أكثر الأحيان، وكذلك السجع فيها غير متكلف ولا هو شديد البروز. على أن السجع في الخطب الطويلة المتعلقة بتنزيه الله ووصف خلق العالم أكثر منه في الخطب القصيرة وفي الرسائل السياسية. إلا أن الموازنة كثيرة، وخصوصاً في خطب الزهد والخطب الدينية عامة. وأما الصناعة المعنوية من تشابيه واستعارات فكثيرة بليغة، وأما الصناعة اللفظية، فالجناس منها يكاد يكون مفقوداً ولكن الطباق كثير.

٥) ليس لنهج البلاغة غاية معينة، بل هو مجموعة من الآراء استمدها الإمام علي من حوادث معينة مرت به وأحوال مختلفة شهدها.

٦) واتجاه الإمام علي في نهج البلاغة اتجاة ديني، فالكلام على الرسل والملائكة والجهاد والنساء لا يخرج عما أقره الدين ودعا إليه. وأكثر ما في نهج البلاغة حث على الجهاد وتخويف من الدنيا وحث للإنسان على أن يتجنب البحث عما يجهل.

٧) وفي نهج البلاغة كلام على الملاحم، وهي الإخبار بالغيب، وبما سيحدث في المستقبل.

٨) وفي نهج البلاغة آراء حكيمة صائبة متفرقة في الخطب خاصة، ولكن ليس لها نظام فيستخرج منها وحدة شاملة.

٩) ونرى من نهج البلاغة أن الإمام علي لا يصرح بما يعرف لأن عقول الناس لا تحتمله: «اندمجت على مكنون علم لو بُحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة». وله القول المعروف: «لو علموا ما هنا (وأشار إلى صدره) قطعوا ما هنا (وأشار إلى عنقه)».

شعره

ينسب للإمام علي ديوان شعر، طبع عدة طبعات رخيصة، ويضم نحو ألف وثلاثمائة بيتا في الحماسة والزهد والنصائح وبعض الرثاء. والديوان متفاوت في الجودة، فما كان منه لطرفة وأبي العتاهية مثلا فهو جيد، وما كان من عمل القُصاص فهو رديء، ولا ريب عندنا قط أن الإمام علي كان خطيبا بليغا، ولقد يكون قد جرى على لسانة شيء من الشعر الذي يتفق إلى حد ما مع خطبه، ولكن القصائد ليست من هذا الباب، ومما اشتهرت نسبته إلى الأمام علي من الشعر:

الناسُ من جِهَةِ التمثيل أكْفا أبوهم آدمٌ والامُ حَواء.

فإن يكن لهمُ في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء.

ما الفضلُ إلا لأهلِ العلم إنهمُ   على الهدى لَمنِ اسْتهدى[1] أدلاء.

وقيمةُ المرءِ ما قد كان يحْسنُهْ   والجاهلون لأهل العلم أعداء.

وإن أُتيتَ بجودٍ من ذوي نَسبٍ   فإن نِسبتَنا جودٌ وعَلْياء.

فَقُمْ بعِلمٍ ولا تطْلُبْ به بدلاً   فالنَّاسُ مَوتَى وأَهل العلم أَحياء.

ثم أنه ليس من المستغرب أن يكون للإمام علي مثل هذا الانتماء[2].

أَنا عليٌ وابْن عبدِ المطَّلِبْ   أْحمي ذِماري وَأَذبُّ عن حَسَبْ

الموتُ خَيْرٌ للفتى من الهربْ

وعلى كل فإن شهرة الإمام علي الأدبية ليست قائمة على شعره، بل على خطبه.

٣ـ أغراض نهج البلاغة:

بين موت الرسول وبين مقتل علي بن أبي طالب في ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة (٢٥ كانون الثاني عام ٦٦١) ثلاثون سنة كان الإمام علي في اثنائها كلها – وربما من قبلها ايضاً – خطيباً مفوّهاً وبليغاً مشهوراً. ولقد نشأ نهج البلاغة في هذه السنين الثلاثين على الأقل فضم

[1] استهدى: طلب الهدى

[2] انتمى اليارس: برز من الصفوف في المعركة وجعل يفتخر بنفسه ويدعو خصومه إلى المبارزة

كل ما عرض للإمام علي وفي حياة الإمام علي من حوادث وأحوال؛ فهو من أجل ذلك متعدد وجوه الأغراض. على أننا سنتناول هنا من هذه الأغراض ما هو أمسّ بموضوعنا وأقرب اتساقاً في تاريخ الفكر الإسلامي.

أولا – ما بعد الطبيعة

يتناول نهج البلاغة في بعض خطبه، وخصوصاً الطوال منها، الكلام على موضوعات ترجع في تاريخ الفلسفة إلى ما بعد الطبيعة وإلى ما عرف بموضوع الإلهيات خاصة.

ونهج البلاغة إسلامي الاتجاه في ذلك كله ولكن الغالب عليه «التنزيه» الذي يتمسك به المعتزلة لا «التشبيه» الذي يأخذ به أصحاب الحديث والأشعرية خاصة.

ومن المعقول أن تكون جميع آراء نهج البلاغة في ذلك تتفق مع ما جاء في القرآن الكريم. ويجدر بالذكر أن نعلم أن نهج البلاغة صريح في التنزيه إلى درجة بعيدة سنترك الأمثلة عليها إلى مواضعها الخاصة.

(أ) الله

يغلب على نهج البلاغة تسمية الله تعالى بما ورد من أسمائه الحسنى في القرآن الكريم، ووصفه بما اتصف به في القرآن أيضاً مما هو سبيل الدين (ص ٢٨٣و١٥٥):

«الحمدُ لله المعروف من غير رؤْية، الخالق من غير مَنْصَبَةٍ (تعب) خَلَقَ الخلائقَ بقُدْرَته، وَأْستَعبدَ الأَرْبابَ بِعزته، وسادَ العظماء بجُوده. وهو الذي أَسكنْ الدنيا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إلى الجنِ وَالإنسِ رُسَلَه.. قد عَلِمَ السَرائر، وخَبُرَ الضمائر. له الإحاطةُ بكلِ شيء وَالغَلَبةُ لكل شيءٍ والقوة على كل شيئ.. لم يَخلقْكُمْ عَبَثاً، ولم يَترُكْكم سُدَى، ولم يَدعْكُم في جهالةٍ ولا عَمىَ: قد سَمَّى آثارَكم، وعَلِمَ أَعمالكْم، وكَتَبَ آجَالكم، وَأنزلَ عَلَيْكمُ الكَتابَ تبْبياناً لكل شيئ.»

وفي نهج البلاغة خطب طوال في تنزيه الله عن أن يُشبه أحداً من خلقه أو أن يوصف بالحركة أو السكون أو بشيئ مما يخطر في بال البشر. ومما يدعو إلى التأمل أن نهج البلاغة يضم من يجري على الله تعالى هذه الصفات بأنه جاهل أو كافر. وهو يرى صراحة أن الإنسان لا يمكن أن يعرف الله بصفاته بل يستطيع أن يعرفه من آثار عظمته في خلقه (ص ١٠٠):

«لمْ يطْلِعِ العُقولَ على تحديد صفَتِهِ، ولم يحْجُبْها عن واجبِ مَعْرفتهِ، فَهُوَ الذي تَشهدُ له أَعلامُ الوُجود.. تَعالى اللّهُ عما يَقولُ المُشَبّهونَ به والجاحدون له عُلُوّاً كبيراً »

على أن الخطبة الأولى في نهج البلاغة تضم أكثر الآراء التي يصح الاستشهاد بها هنا، وهي الخطبة الحادية عشرة في هذه الدراسة، ويجدر بنا أن نعلم أن نهج البلاغة يهاجم الأشعرية وأهل الحديث خاصة من

المشبهة الذين يزعمون أن الله تعالى يجلس على عرش جلوساً معروفاً من دلالة اللغة، ولا يقبلون أن يتأوّلوا الجلوس على العرش بمعنى «القدرة والسلطان» كما يرى المعتزلة.

ثم يتعرض "نهج البلاغة" لصفات الله ويجعلها مخالفة لصفات البشر خلافاً جوهرياً؛ فالله قوي مثلاً لا بمعنى أنه أقوى من الإنسان فقط، بل لأن قوة الإنسان إذا قيست بقوة الله لم يجز أن تسمى قوة على الإطلاق (ص ١١٤):

«الحمدُ للهِ الذي لم يَسْبِقْ لهُ حالٌ حالا، فيكون أولاً قبلَ أن يكونَ آخراً، ويكونَ ظاهراً قَبلَ أنْ يكونَ باطناً.. كُلُّ مُسمَّىً بالوَحدَة غَيْرَهُ قليلٌ، وكلُّ عزيزٍ غَيرهُ ذليلٌ، كلُّ مالكٍ غَيرُهُ مملوكٌ وكلُّ عالمٍ غيرهُ مُتَعَلِمٌ، وكلّ قادرٍ غيرهُ يَقْدِرُ ويَعْجِزُ. وكلُّ سميع غيرهُ يُصَمُّ عن لطيفِ الأَصوات ويُصمُّهُ كبيرُها، ويذهب عنه ما بَعُدَ منها. وكل ظاهرٍ غَيرهُ باطنٌ؛ وكلُّ باطنٍ غيرهُ ظاهرٌ.."

(ب) الملائكة

ورأيُ "نهج البلاغة" في الملائكة هو رأي القرآن فيها (ص٢٢٤):

«من ملائكة أسكنْتَهم سمواتَك، ورفعتهم عن أرضك. هم أَعْلمُ خلقك بك، وأَخوفهم لك، وأقربهم منك. لم يسكنوا الأصلاب[1]، ولم

[1] لم يولدوا من آباء

يضمَّنوا الأرحام، ولم يُخْلَقوا من ماء مهين[1]، ولم يشْعَبهم ريب المنون[2].. وإنهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك وطاعتهم لك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كُنه ما خفِيَ عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولعرِفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك...»

(ج) الرسل

ويرى نهج البلاغة في الرسل والانبياء رأي الدين من ان الله ارسلهم ليهدوا البشر، وانه استخرجهم من هي البشر في المولد والنصِب والخلق والخُلق (ص ١٩٤):

«أستودعَهُمْ فِي أفضل مستودَعٍ، وأَقرهم في خَيْر مُستَقَرٍ: تَناسَخَتْهم كرائمُ الأَصلاب إلى مُطَهَّرات ألأَرْحامِ. كلما مضى سَلَفٌ قامَ منهم لدين اللهِ خَلَفٌ حتى أَفْضَتْ كرامةُ أبيه سبحاتهُ إِلى مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم فأَخرجَهُ من أفضل المعادِن مَنْبِتاً وأَعَزِ الأُرومات مَغْرساً، من الشجرة التي صَدَعَ منها أَنبياءَهُ وأنتَخَبَ منها أمناءَهُ. أُسرَتُهُ خَيرُ الأُسر، وشجرتُهُ خَيرُ الشَّجَر، وَعِتْرَته[3] خيرُ العتَر. ،تسَقَت في كَرَمٍ. لها فروعٌ طَوالٌ وثمرةٌ لا تُنالُ. فهو إمامٌ.. سُنَّتُهُ الرُّشدُ وَحكْمُهُ العَدْلُ. على حينِ فترة مِنَ الرُّسُل، وَغباوةٍ من الأُمَم.»

---

[1] راجع القرآن الكريم ٣٢ (السجدة):٨ و ٧٧ (المرسلات): ٢٠ و٨٦ (الطارق): ٥/ ٧.

[2] لم يموتوا

[3] أهل بيته

وعمل الرسالة في "نهج البلاغة" لا ينقطع بموت الرسول، ولكنه يستمر على يد رسول مثله أو على يد غيره. قال ص ٢٦ و٢٨:

«ولم يخب سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب مُنزَل أو حُجة لازمة أو مَحجَّة قائمة.. ثم قبض (محمد) صلى الله عليه وآله، وخلَّف فيكم ما خلفه الأنبياء في أممهم إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح أو علم قائم، كتابَ الله فيكم مبيّنا حلاله وحرامه.»

أما فضل آل البيت فظاهر في أماكن مختلفة.

د- الملاحم

«الملاحم» هنا هي «الإخبار عما سيكون»، إنها تطلع إلى الغيب. وفي "نهج البلاغة" من ذلك شيئ ليس بقليل، وخصوصاً فيما يتعلق بالحروب وبالأحداث السياسية. وقد قيل للإمام علي مرة: «أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب»؛ فضحك، وقال للقائل (٢٦٥): «ليس هو بعلم غيب ولكنه تعلم من ذي علم. وإن علم الغيب علم الساعة[١] (وغير ذلك) فهذا الذي لا يعلمه أحد إلا الله. وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتنضم عليه جوانحي»

أما بعض ما ذكره الإمام علي وهو من باب الملاحم فتجده في أماكن مختلفة (ص ٤٥، ٢٧٩ إلخ). وأما صفة الجنة والنار والقضاء

[١] يوم القيامة

والقدر فترد كلها في "نهج البلاغة" على ما قبله الإسلام وجاء في القرآن.

ثانياً – الطبيعة

إن الكلام الوارد في نهج البلاغة عن الطبيعة غير قليل، ولكنه متفرق هنا وهناك وهو ينقسم قسمين ظاهرين: القسم الأول قائم على «الفهم الديني» للوجود، وهو القسم الغالب في النهج، ويتناول خلق آدم وخلق العالم وصفة السماء والعبرة بالحيوان والنبات . ثم هناك القسم الثاني وهو إشارات طبيعية مادية ترجع إلى آراء كانت معروفة منذ القديم. أما الرأي الأول فهو متمثل في الكلام على خلق آدم: مثلا (ص ٢٣)، «ثم جَمَعَ سُبحانه من حَزْنِ[١] الأرض وسَهْلها، وعَذْبِها وسَبْخها[٢] تُرَبَةً سَنَّها بالماء حتى خلَصت، ولاطها بالبِلَّةِ حتى لزبت[٣] فجل منها صورة ذات أَحناءٍ ووُصولٍ، وأعضاء وأُصول. أَمسَكَها حتى استمسكت وأَصلدها حتى صَلْصَلَت، لوقتٍ معدودٍ وأَمَد معلومٍ، ثم نفخ فيها من رُوحه فمَثَّلتْ إنساناً ذا أَذهان يُجِيلَها وفِكَر يَتَصَرّفُ بها»

وأما الإشارات الطبيعية فأحب أن أذكر منها شيئاً يتعلق بصورة العالم، من ذلك (٤٤٦– ٤٦٨): وكان مِنَ اقتدار (الله) أن حعلَ من ماء

---

[١] الأرض الغليظة

[٢] مالحها

[٣] سنها: مزجها بالماء. لاطها: مزجها وعجنها.

البحر المُتَرَاكم المتقاصِف يَبَسا جامِداً، وأَرسَى أرضاَ يَحْملُها الأخضرُ المُثْعَنجِرُ (البحر العظيم) فسُبحانً من أمْسَكَها بعد مَوْجان مياهها وأجمدها بعد رُطوبَة أَكّنافِها» هذا يذكرنا ببعض ما جاء في الفلسفة الآيونية (اليونانية القديمة) وهي آراء الفلاسفة الطبيعيين[1] فقد ذكر أولهم ثاليس الملطي أن العناصر ينقلب بعضها إلى بعض، وذكرنا أن الماء يتحول إلى تراب والتراب إلى ماء، وكذلك جعل ثاليس «الأرض» سطحاً سابحاً على الماء.

ثم يعود نهج البلاغة إلى تفصيل رسوّ الأرض على الماء (ص١٨١- ١٨٢) ويجب أن نذكر أن ثاليس ونهج البلاغة يتخيلان الأرض عائمة على الماء كما يعوم المركب في البحر. أما الوصف الصحيح فهو أن الماء موزع على سطح الأرض نفسها.

ثالثاً – الاجتماع

وقيمة نهج البلاغة إنما هي في الناحية الاجتماعية فهو يصور عصره في الدرجة الأولى ثم يبدي في السياسة والحرب آراءً صائبة. وإذا نحن علمنا أن الإمام علي قد ضرب من العلم بسهم وافر لم نستكثر تلك الآراء الصائبة عليه بل لعلها أقل مما يجب أن يصلنا عنه.

[1] راجح الفلسفة اليونانية في طريقها إلى العرب.

(أ) صورة العصر

يشكو الإمام علي من أتباعه، ومن أهل الكوفة منهم خاصة، بأنهم كثيرو الدعوى فإذا جد الجد فشلوا وعجزوا عن كل شيء: إنهم يشجعونه على خوض الحرب ويعدونه بأنهم سينصرونه، فإذا نشبت الحرب جلسوا في بيوتهم، وقعدوا عن نصرته. وإنك لتعجب إذا علمت أن الإمام علي كان يرى أن أتباع معاوية خير من أتباعه، ولذلك كان يتمنى أن يكون له بكل عشرة من أهل الكوفة رجل واحد من أهل الشام. أما الجهل والخداع والجبن وترك الدين والتكالب على الدنيا فشيء موجود في كل زمان ومكان، ولم يكن عصر الإمام علي شاذاً في ذلك، وكثيراً ما كان يعجب الإمام علي كيف أن أتباع معاوية يجتمعون على الباطل وأن أتباعه هو يتفرقون عن الحق.

إن هذه الخطب تكشف بلا ريب عن الفوضى التي كانت سائدة في الحجاز وفي العراق وعن اختلاف الآراء هنالك بينما هي تدل على سيادة النظام في الشام (سورية) والتفاف أهلها حول معاوية. ولقد كان لذلك تحليل واحد ذكره جميع المؤرخين وقبله جميع الدارسين: كان الإمام علي تقياً يخشى الله في الناس ويعتقد أن الخلافة أمانة تجب المحافظة عليها، ولقد كان احتفاله بالآخرة وبرضى الله دون الدنيا ودون رضى الناس. أما معاوية فكان دنيوياً في سياسته يأخذ بالدهاء ويلجأ إلى الحيلة والمكر ولا يقيم في الدولة وزناً إلا لخيره وخير أسرته.

لقد كان علي «إماماً تقياَ» وكان معاوية «ملكا داهية».

(ب) السياسة والحرب

كان الإمام علي بطلا شجاعاً مما لا يحتاج إلى بسطة في القول، ولقد كان نجاحه في الحروب الأولى أيام الرسول خاصة عظيما. أما الآن – في أيام خلافته – فقد بقيت له شجاعته وبطولته ولكن فارقه نجاحه لما رأيت في الكلام على صورة عصره. وهنالك خطبة تدل على كل ما ذكرنا هنا دلالة واضحة، وهي الخطبة الأولى من المختارات التي أثبتناها في هذه الدراسة.

في هذه الخطبة يرى الإمام علي ما يلي من الآراء الصائبة:

(أ) الاستعداد للحرب يجعل الأمة مهيبة يخافها أعداؤها، بينما قعودها عن الجهاد يجرّىء أعداءها عليها.

(ب) كل أمة تغزى في ديارها تغلب على أمرها وتخرب بلادها (لا ريب في أن وصول العدو إلى أرض أمة دليل على ضعف تلك الأمة).

(ج) أن نجاح القائد في الحروب يعتمد إلى حد بعيد على طاعة جنده له وتقيدهم بأوامره.

(جـ) الخوارج خاصة

نقم الخوارج على الإمام علي لأنه قبل بالتحكيم في شأن الخلافة بينه وبين معاوية ثم لم يرض بالحكم ولا أراد أن يحارب معاوية، ويظهر

بجلاء أن الخوارج لم يكونوا أعداء للإمام علي وحده بل كانوا أعداء لمعاوية أيضاً، ولكن لما لم يقبل الإمام علي أن يحارب معاوية لأنه كان من الذين جروا المسلمين إلى القتال وإهراق دمائهم وشتت آراءهم، أصبح معاوية وعلي عندهم في مرتبة واحدة. ولما صمم الخوارج سنة ٤٠ للهجرة (أواخر ٦٦٠) على قتل النفر الذين كانوا سبب هذه الفتنة بين المسلمين حاولوا قتل معاوية وعمرو بن العاص وعلي.

لقد عرف الإمام علي على وجه الحق، ومن أجدر منه بذلك، ولذلك تراه يعتذر لنفسه في نهج البلاغة بقوله (ص ٨٥– ٨٦):

«أما بعد مَعْصِيَةَ الناصح الشفيقِ العالِمِ المجربِ، تُورِثُ الحيرة وتُعقِبُ النَّدامة. وقد كُنتُ أَمَّرْتُكُمْ في هذه الحكومةِ أمري ونَخَّلْتُ لكم مخزونَ رأيي، فأَبيتُمْ عليَّ إِباءَ المخالفينَ الجُفاةِ والمُنابذين العُصاةِ، حتى ارتابَ الناصحُ بنْصحِهِ وضَنَّ الزَّندُ بقَدْحِه".

ثم إن الخوارج دفعوا رأيهم السياسي إلى أبعد من هذ الحد وطلبوا من الإمام علي أن يعتزل الخلافة. وقد كان الخوارج قد اتخذوا شعاراً لهم: «لا حُكم إلا لله!» يقصدون أن الإمام علي ومعاوية قد حكما رجلين في الخلاف بينهما، هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص، بينما الحكم يجب أن يكون لله وحده، ورأى الخوارج أن التحكيم فاسد لأن الخلافة – في رأيهم – ليست من حق علي ولا من حق معاوية، فإذا نشب بينهما خلاف، فيجب عليهما كليهما أن يعتزلا هذا المنصب. حتى

أن المنصب نفسه لا ضرورة له، إذا الحاجة إليه إنما هي حاجة إلى من يقيم للمسلمين أمور دنياهم، فإذا استقامت تلك الامور لم يبق للمسلمين من حاجة إلى خليفة.

ولما رد الإمام علي على الخوارج ففنّد رأيهم تفنيداً صحيحاً، ولكنه لم يتعرض إلا للناحية الدنيوية من الموضوع. أجل، إن الحكم لله، ولكن لا بد من رجل يقوم في الناس لينفذ حكم الله وليحمل الناس على الاستقامة في امورهم (راجع الخطبة الرابعة من المختارات في هذه الدراسة).

(د) المرأة

نهج البلاغة شديد الحملة على المرأة، وسبب ذلك واضح: أن عائشة أم المؤمنين، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد خلقت له مشاكل كثاراً. وترجع عداوة عائشة وعلي إلى أيام الرسول — في حديث الإفك كما يزعمون، فليرجع إلى ذلك في موضعه — وكذلك اعتقد علي أن عائشة صرفته عن حقه في الخلافة. لما مرض الرسول مرض الموت حملت عائشة أمر الرسول إلى أبيها أبي بكر أن يصلي بالناس مكان الرسول. ومع أن هذا لا يدل على أن الرسول أوصى بالخلافة لأبي بكر أبداً، إذ أن استخلاف أبي بكر كان عملياً سياسياً قام به عمر بن الخطاب، فإن الهاشميين قالوا يومذاك، فيما يروى: إن الأمر بالصلاة بالناس كان للإمام علي، فصرفته عائشة من عندها إلى أبيها أبي بكر.

ولم تبرز عائشة أيام أبي بكر وعمر على مسرح السياسة، ولكن لما تولى عثمان – وكان ليناً مستنيماً إلى قومه بني أمية – رجت أن تولي مكانه أخاها محمد ابن أبي بكر، ولذلك يروى أنها كانت تقول: اقتلوا نعثلا[١] فقد كفر، ثم قُتل عثمان، وكان من الذين اشتركوا في الفتنة محمد ابن أبي بكر أخو عائشة.

ولما انتخب علي خليفة وقفت عائشة في صف الذين كانوا يطالبون علياً بدم عثمان مرة وبالقصاص من الذين قتلوا عثمان مرة ثانية. ولا ريب في أن عائشة هي التي أثارت على الإمام علي حرب الجمل، وأفسدت بذلك خلافته السياسية إفساداً كاملا. من أجل ذلك كله لا أظنك تعجب إذا عرفت من منهج البلاغة أن الإمام علياً كان ناقماً على المرأة.

أراد الإمام علي أن يرى «نقص قدر المرأة، مما ذكره القرآن الكريم في مواضع متفرقة»:

في سورة النساء (٤: ٣٤): «الرجالُ قوّامون على النساء بما فضَّل الله به بعضَهم على بعض. فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حَفِظَ الله. واللاتي تخافون نُشوزَهن فعِظوهن واهْجُروهن في المضاجعِ واضرِبوهن، فإن أَطَعْنَكُمْ فلا تبْغوا عليهن سبيلاً»

[١] صيغة تحقير لعثمان

وفي سورة النساء أيضاً عند الكلام على الإرث (٤: ١٠ و١٧٥) يُوصيكمُ الله في أولادِكم للذكر مثلُ حظِ الأنثَيينِ»

وفي سورة البقرة عند الكلام على الشهادة (٢: ٢٨٢) «واستشهدوا شهيدينِ من رجالِكم، فإن لم يكونا رجلينِ فرجلٌ وامرأتانِ ممن ترضوْنَ من الشُّهداء، أنْ تَضِل إحداهُما فتذكِّر إِحداهما الأخرى»، وكذلك في سورة البقرة (٢: ٢٢٢) عند الكلام عن المحيض.

هذه الأسباب كلها جعلت الإمام علي يحمل على النساء كلهم حملة شديدة ويتهمهن جميعهن ومن يتبعهن معهن، وقد خطب بعد معركة الجمل فوصف النساء بأنهن نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص الحقوق (راجع الخطبة التاسعة).

ومن أقوال الإمام المأثورة: "المرأة شر، وشر منها أنها لا بد منها"

ومع أنه يرى أن ذلك عامّ في النساء فإنه يرى أيضاً أن نقمة عائشة كانت عليه خاصة وانها لم تكن لتعامل رجلا غيره بما عاملته به (ص٣١٠):

«وأمَّا فلانة (يعني عائشةَ) فأَدْرَكَها رأَيُ النساء وضِغن غلا في صدرِها كمِرْجَل القَينِ[1]. ولو دُعِيَتْ لِتنالَ من غيري ما أَتَتْ إِلَي لَم تَفْعَلْ»

[1] مرجل القين: كير الحداد

على أنه يرى أيضاً أن عائشة قاتلته لأن قوما حملوها على ذلك (ص ٣٥٣): «فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تُجرّ الأمة عند شرائها متوجهين بها إلى البصرة»

ولكن لما رأى التفاف أهل البصرة حول عائشة رضى الله عنها ذمهم لأنهم كانوا هم تابعين لها، فقال (ص ٤٥-٤٦):"كُنُتم جُنْدُ المرأةِ وأَتباعَ البَهيمةِ[١]، رَغا[٢] فَأَجَبْتُمْ وعُقِرَ[٣] فهربتم. أخلاقكم رقاقٌ وعَهْدُكم شقاق ودينُكم نِفاق، وماؤكم وُعاقٌ[٤].. أَنْتُ بِلاد اللهِ تُرْبَة: أَقْرَبُها من الماء وأَبعدُها من السماء، وبها تسْعةُ أعشار الشرّ"

نرى مما تقدم أن الإمام علي قد ظلم المرأة وحمل عليها حملة شديدة، ولكننا في الوقت نفسه نرى سبب ذلك واضحاً بيناً. ولكن العجيب أنه لم ير فيها خيراً البتة، ولا ذكرها بحسنة ولا أشار إليها بمعروف. وعلى هذا نحمل آراء نهج البلاغة في المرأة على أنها «رأي اجتماعي عام» تبنى عليه الأحكام التي تعرف بها المنزلة الحقيقية للمرأة في المجتمع وفي تاريخ الفكر الإنساني.

---

[١] البهيمة هنا الجمل، وذلك أن عائشة كانت تركب في تلك المعركة جملا، ولذلك عرفت الحرب بمعركة الجمل

[٢] صوت

[٣] قُتل

[٤] مالح

(هـ) الأخلاق

و«الأخلاق» في نهج البلاغة قسم من الفلسفة الاجتماعية لأنها مبنية على ما عده الدين حسناً حتى ولو كان غريباً في نظر الناس (ص٢٤٠):

«إنه ليس بشيءٍ أشرّ من الشر إلا عِقابه، وليس بشيء خيرٌ من الخير إلا ثوابهُ. وكلُّ شيءٍ من الدنيا سَماعُه أَعظمُ من عِيانِه، وكلُّ شيءٍ من الآخرةِ عِيانُهُ أَعظمُ من سماعه.. واعْلَموا ان ما نَقَصَ من الدُّنيا وزادَ في الآخرة خيرٌ مما نَقصَ من الآخرة وزادَ في الدنيا.. وإنَّ الذي أُمِرْتُمْ بهِ أوسعُ من الذي نُهِيتُمْ عنه، وما أُحِلَّ لكم أكثر مما حُرّمَ عليكم»

وهكذا نجد أن الدين والأخلاق في نهج البلاغة شيء واحد، وإن كان نهج البلاغة أحياناً ينسب «ظلمة الأخلاق» في الإنسان إلى نشأته الطبيعية من التراب. وأما اختلاف الناس في أخلاقهم فراجع إلى اختلاف بيئتهم الطبيعية أيضاً (ص ٥٠٤):

«إنما فَرَقَت بينهم مبادئ طِينهم، وذلك أَنَّهُمْ كانوا فَلْقَةً من سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِها، وَحَزْنِ تُرْبَة وسَهْلها. فهم على حَسَبَ أَرضِهم يَتَقاربون، وعلى قَدْر اختلافِهَا يَتَفاوَتون...»

ولقد تلون نظر الإمام علي إلى الأخلاق بأخباره في السياسة والحرب، ولذلك نرى القول بفساد الناس أغلب عليه (ص ٩٢):

«إِنَّ الوفاءَ تَوأَمُ الصِدّقِ، ولا أَعْلَمُ جُنةً أَوْقى منْهُ. ولا يَغْدرُ من عَلِمَ كَيْفَ الَمْرجِعِ. ولقد أصْبحنا في زمانٍ قدِ اتَّخَذَ أكثرُ أهلهِ الغَدْرَ كَيْسًا[1] وَنَسَبَهُم أهلُ الجهلِ فيه إلى حُسْنِ الحِلةِ. قَاتَلَهُمُ الله، قَدْ يَرى الحُلولُ القُلْبُ[2] وَجْهَ الحبيبةِ ودوُنَهُ مانِعٌ من أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُها رَأيَ العين بعدَ القُدْرَةِ عليها، وَيَنْتَهِزُ فُرْصتها من لا حريجة[3] له من الدِين».

ولقد بنى الإمام علي كل آرائه في الأخلاق على رأيه بأن «الدنيا دار ممر والآخرة دار مقرّ»، فاعتبر كل ما أدى إلى الفوز في الآخرة خليقاً بالإنسان عمله، وكل ما قاد إلى نفع في الدنيا لا قيمة له، ذلك هو نظر الدين في الأخلاق.

---

[1] عقلا

[2] المقتدر المختبر للأمور

[3] التوقي، يعني بذبك من لا يهتم إن أذنب أو لم يذنب.

(و) العامة

نظر الإمام علي إلى الناس – كما فعل غيره أيضاً – على أنهم طبقات، ولذلك قال قولاً هو في أعلى طبقات الحكمة الاجتماعية، قال: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم. أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟» ويبدو أن الإمام علي اعتبر معظم الناس في العام ولذلك لم يصرح بعلمه لأحد.

المختار من خطبه

١- الجهاد: أغار سفيان بن عوف الآزدي الغامدي على مدينة الأنبار زمان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعلى الأنبار يومذاك أشرس بن حسن البكري. وقد استطاع سفيان أن يقتل أشرس وأن يرد خيل علي بن أبي طالب خطبته التالية:

أمّا بعد، فن الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة فتحه اللهُ لخاَصة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرْعُ الله الحصينة وجنّته الوثيقة فمن تركه رَغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذل وشَمِله البلاء[1]، ودُيِثَ بالصَّغار والقَّماء[2]، وضُرِبَ على قلبه بالأَسداد[3]، وأُديلَ الحلقُّ منه بتضييع الجهاد، وسِيمَ الخَسفَ ومُنِعَ النَّصَفَ[4]. ألا وإني قد دعوتْكم الى قتال هؤلاء القوم[5] ليلاً ونهاراً، وسراً واعلاناً، وقلت لكم : « فوالله مما غُزيَ قومٌ في عُقْر دارهم إلا ذَلَوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت الغارات عليكم ومُلِكَت عليكمُ الاوطان. وهذا أخو غامد وقد وَرَدَتْ خيلُه الأنبَار، وقد قَتَلَ حسانَ بنَ

[1] الجُنة (بضم الجيم): الوقاية، الستر. شمله البلاء: عمته المصائب

[2] ديث: ذلل. الصفار والقماء: الذل والتضاؤل. المقصود: الذلة والاحتقار

[3] الأسداد جمع سد. ضرب على فلبه بالأسداد: جعل بينه وبين الحق ستاراً

[4] أُديل الحق منه: أخذ منه الحق. ظلم النصف: الإنصاف. الخسف: الذل

[5] أهل الشام

حسان البَكري، وأزال خَيلَكم عن مسالحها[1]. ولقد بلغني أن الرجلَ منهم كان يَدْخُلُ على المرأة المسلمة والأخرى المُعاهدة فينتزعُ حِجْلَها وقُلْبها وقلائِدَها ورِعاثِها ما تُمْنَعُ منهُ إلا بالاسترجاع والاسترحام[2]. ثم انصرفوا وافرين[3] ما ندل رجلاً منهم كَلْمٌ[4] ولا أرِيقَ لهم دَمٌ. فلو أن امْرَأَ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلوماً، بل كان به عندي جديراً.

فيا عجباً، واللهِ، يميت القلبَ ويَجْلبُ الهم اجتماعُ هؤلاء القوم[5] على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وتَرْحاً حين صرْتم غرضاً يُرمى[6]: يُغارُ عَلَيْكم وَلا تُغيرون، وتغْزَوْنَ، وَيُعْصى اللهُ وتَرضَوْنَ. فإَذا أَمَرتُكم بالسير إليهم في الصيف قلتم هذه حَمارَّة القيط أَمْهِلنا حتى يَسْبَخَ عنا الحر[7]. وإذا أَمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قاتم هذه صَبارة

---

[1] المسلحة: المكان الحصين الذي يوضع فيه الجند للدفاع

[2] الحجل: الخلخال (يكون في الرجل). القلب : السوار (يكون في اليد). القلادة: العقد في العنق. الرعاث: الأقراط (تكون في الأذن). الاسترجاع: قولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون. الاسترحام: طلب الرحمة.. قولهم: رحمة الله أي كانوا يتأسفون بأفواههم ولا يدافعون بأنفسهم.

[3] وافرين: سالمين

[4] كلم: جرح

[5] أهل الشام: أتباع معاوية

[6] الترح: الحزن. الغرض: الهدف، أي تصيبكم المصائب

[7] حمارة القيظ: أشده. يسخ: يخف

القُرّ[1]، أَمهِلنا حتى يَنْسَلِخَ عنا البردُ. كل هذه فِراراَ من الحَر والقَرّ. فَأَنتم واللهِ من الشَّيْفِ أَفَرّ.

يا أشباهَ الرجالِ ولا رجالَ. حلومُ الأَطفال، وعقولُ ربأَّت الحِجال[2]. لَوَدِدتُ أَني لم أَدَرككم ولم أَعْرِفْكم. معرفةٌ، واللهِ، جَرَّت نَدما، وأَعقبت سَدَما[3]. قاتلكم اللهُ، لقد ملأْتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً، وجَرَّعتموني نُغَبَ التهمام أَنفاسا[4]. وأَفسدتم عليَّ رأْيي بالعِصيان والخِذلان، حتى قالت قُريشُ: إنَّ ابن أبي طالبٍ رجلٌ شُجاع، ولكن لا علمَ له بالحرب. للهِ أَبوهم! وهل أحدُ منهْم أشدَّ لها مِراساً[5]، وأَقدم فيهَا مقاماً مني؟ لقد نَهَضْتُ فيهَا وما بَلَغْتُ العِشرين وها أَنا ذَرَّفت على الستين[6]، ولكن لا رَأيَ لمن لا يُطاوِع.

٢- جوابه لعمر بن الخطاب: كان عمر بن الخطاب قد عزم على أن يذهب على رأس جيش الفتح إلى فارس بنفسه، فاستشار علياً في ذلك، فقال علي:

---

[1] القر: البرد. الأصل في القر أن تكون مضمونة ولكنها فتحت هنا اتباعا للفظة الحر .

[2] حلوم: عقول. ربات الجحال: النساء.

[3] السدم: الأسف.

[4] سيقيتموني الهم شيئاً بعد شيء.

[5] المراس: المعاناة، والتمرين.

[6] زادت سني على السنين

"إنَّ هذا الأمرَ لم يكن نصرهُ ولا خِذلانه بكَثْرة ولا قِلَّةٍ، وهُوَ دينُ الله الذي أظهره، وجُنْدُه الذي أعده وأَمدَّه[١] حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع. ونحن على موعدٍ من اللهِ، واللهُ مُنْجِزٌ وعدَه، وناصرٌ جُنْدَه. وإِن مكان القَيّم بالامر مكان النِظَام من الخَرزَ يَجْمعُهُ ويضمَّهُ[٢]. فإذا انقطع النظام تَفَرَّق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً [٣] والعربُ اليومَ وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكُن قُطْبا[٤] واسْتَدِرْ الرحى بالعرب وأصْلِهِمْ دونك نار الحرب[٥] فإِنك إن شَخَصْتَ من هذه الأَرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها[٦] حتى يكونَ ما تَدَعُ وراك من العَوْرات أَهَم إليك مما بَيْن يديك[٧].

إن الأعاجمَ إن يَنظروا فيكون ذلك أَشدَّ لِكَلَبهم عَليك[٨] وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مَسيرِ القوم إلى قِتال المسلمين فإن الله سبحانه هُوَ أكرمُ لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما تَكْرهُ، وأما ما ذكرت

---

[١] أعانه: نصره.

[٢] ضمه: جمعه وحفظه.

[٣] إذا انفرط عقد فإنه يضيع من حياته شيء.

[٤] القطب: المحور الذي تدور عليه الرحى (الطاحون)

[٥] حارب بقومك العرب، ولا تتعرض أنت لها.

[٦] شخص: ذهب. انتقضت عليك: اختلفت بعدك وخرجت من طاعتك.

[٧] إن الضرر الذي سيكون في بلاد العرب بعدك لن يوازي بالنفع الذي ستلقاه إذا سرت بنفسك إلى قتال الفرس.

[٨] تعطشهم إلى قتلك.

من عدهم فإن لم نكن نقاتل فيما مضى بالكَثْرَةِ وإنما كنا نقاتل بالنَصْر والمعونة[١] واللهِ، ما أنكروا عليّ مُنكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نَصَفاً[٢] يطلُبون حقاً تركوه ودماً هم سفكوه. فإن كنتُ شريكَهم فيه فإن لهم نصيبهم منه. وإن كانوا وَلُّوه دوني فما الطَّلْبة إلا قِبَلِهم![٣] وإن أوَّلَ عدلهم لَلْحُكْمُ على أنفسهم. وإن معي لبصيرتي ما لَبَّست ولا لبس علي[٤]. وإنها لَلْفِئَةُ الباغية. إنّالم نُحَكِّمِ[٥] الرجالَ وإنما حكَّمنا القرآنَ. وهذا القرآنُ إنما هو خطٌّ مستور بين الدفتين[٦] لا ينطِق بلسان، ولا بُدَّ له من تَرْجُمان، وإنما ينطِقُ عنه الرجالُ. ولما دعانا القومُ إلى أن نُحَكِّمَ بيننا القرآنَ لم نكنِ الفريقَ المُتَوَّلي على كتاب الله تعالى، وقد قال سُبحانه: «فإن تنازَعْتُمْ في شيءً فرُدُّوه إلى اللهِ وإلى الرسول»[٧]. فَرَدُّه إلى الله أَنْ نَحْكُمَ بكتابه، وردُّه إلى الرسول أن نأْخُذ بسُنَّته. فإذا حُكِمَ بالصِدقِ في كتابِ الله فنحن أَحقُّ الناس به، وإن حُكم بسُنَّة رسولِ الله صلى الله عليه وآله فنحن أولاهم به.

---

[١] لم نكن ننتصر بكثرة عددنا بل بعون الله لنا.

[٢] النصف: العدل والإنصاف

[٣] ولوه دوني: فعلوه وحدهم. الطلبة: المطالبة والطلب . قبلهم: عندهم.

[٤] إذا أرادوا أن يعدلوا في القضية فعليهم أن يحكموا على أنفسهم. لبّس: خادع، غش.

[٥] حكّم واحتكم إليه: جعله حكمَا

[٦] الدفتان: جلدتا الكتاب

[٧] سورة النساء، ٤ : ٨٩

٣- كان طلحة والزبير يطلبان الخلافة لنفسهيما، وقد كانا من رجال الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب بعد أن طعنه أبو لؤلؤة. وكانا منذ ذلك الحين ينازعان عليا الخلافة. فلما انتخب بايعاه بالخلافة ثم انقلبا عليه.

٤- كان الخوارج يتنادون للاجتماع بقولهم :«لا حكم إلا الله». وكانوا يقصدون بهذا النداء أن يضعفوا مركز الإمام علي إذ يعنون أن لا سلطة للإمام علي عليهم لأن السلطة الحقيقية هي لله. ففي يوم من الأيام سمع الإمام علي الخوارج يحكّمون (يقولون: لا حكم إلا لله) فقال:

"كلمةُ حق يُرادُ بها الباطل! نعم، انه لا حُكْمَ إلا لله. ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله. وأنه لا بُدَّ للناس من أميرٍ بَرّ أَو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويُبَلِغُ الله فيها الأَجَل، وبُجْمَعُ به الفَيء، ويُقاتل به العدو، وتَأْمَنُ به السُبُل، ويُؤخذ به للضعيف من القويّ حتى يستريحَ بَرٌّ، ويستراح من فاجرٍ.

٥- أنكر الخوارج على الإمام علي انه أختار رجلاً (هو أبو موسى الأشعري) ليحكم بينه وبين معاوية، مع أن الحكم في كل شيء هو الله؛ فرد الإمام علي على الخوارج بما يلي:

"وأما قوُلكم: لَمِ جعلتُ بينَكم وبينهم أَجلاً في التحكيم، فإِنما فعلتُ ذلك لِيَتَبينَ الجاهلُ وَيَتَثَبَّتَ العالم. ولعل الله أَنْ يُلِح في هذه

الهِدْنَةِ أَمرَ هذه الأمة ولا تؤخذ بأَكْظَامها فَتَعْجَلَ عن تَبَيُّنِ الحق وتنقادَ لأولي الغي".

٦- كان عدد كبير من أتباع الإمام علي غير مخلصين له فقال يقرّهم ويذمهم: أَحمدُ الله على ما قضى من أَمرٍ وقدّر من فِعْل، وعلى ابتلائي بكم، أَيَّتُها الفرقةُ الفرقة التي إذا أَمَرْتُ لم تُطِعْ، وإذا دَعَوْتَلم تُجِبْ: إن أُمْهِلْتم خُضْتُمْ، وان حُوربتم خُرْتم[١]. وإنِ اجتمع الناسُ على إمام طَعَنْتُمْ، وإن أجبتم إلى مُشاَّقةٍ نَكَصْتم[٢]. لا أباً لغيرِكم، ما تَنْظُرون بنصرِكم ربَّكم والجهاد على حقكم[٣]؟ الموتُ أو الذّل لكم! فو اللهِ لئن جاء يومي – ولَيأتِيني – لَيُفَرِقْنَ بيني وبينكم، وأنا لكم قالٍ وبكم غيرُ كثير. للهِ أنتم، أما دينٌ يجمعُكم ولا حَميَّةٌ تَشْحَذُكم[٤]. أو ليسَ عجباً ان معاوية يدعو الجُفاة الطّغام فيتبعونه على غير مَعونة ولا عطاءٍ، وأنا أدعوكم، وأنتم تريكةُ الإسلام وبقية الناس على المعونة وطائفة من العطاء، فتتفرقون عني وتختلفون علي[٥]؟ إنه لا يخرج إليكم مِن أمري رضى

[١] أمهل: ترك إلى أجل معين. خاض: الخوض (هنا) الكلام الكثير. خار: ضعف

[٢] طمن: اختلق العيوب. مشاقة: حرب، نزاع. نكص: ارتد، انهزم – إذا اتفق أنكم أجبتم الذي يدعوكم فإنكم بعد قليل تتغيرون

[٣] لا أبا لك: أى لا أبا لك يُعاب . لا أباً لغيركم: آباؤكم أنتم فيهم عيب. ما تنظرون بنصر ربكم الخ: ما تنتظرون حتى تنصروا ربكم (تعملوا بما أمر وتقاتلوا في سبيله) .

[٤] جاء يومه: مات. قالٍ: مبغض. وأنا بكم غير كثير: لا أشعر أنكم تزيدون في قيمتي أو قوتي. الحمية: الرغبة بالنصرة، الخوف على العرض والمبدأ. تشحذكم هنا معناها: تدفعكم .

[٥] الجاف: الجلف، القاسي. الطغام: اللئام، الأراذل. التريكة: البقية. ما كنتم له كارهين لكنكم عمي لا تبصرون ونيام لا تستيقظون.

ترضَوْنَهُ ولا سُخطٌ فتحتجون عليه. وإن أحبَّ ما أنا لاقٍ إليَّ الموتُ. قد دارستكم الكتابَ وفتحتكم الحِجاج وعرَّفتكم ما أَنكرتم وسوّغتكم ما مَججْتم، لو كان الأعمى يَلَحظُ أو النائم يستيقظ[١]. وأقْرب بقومٍ، من الجهل بالله، قائدُهم معاويةُ ومُؤدِبُهم ابنُ النابغة.

٧- قال يذم أتباعه: "كم أداريكم كما تُدارى البِكارُ العَمِدة والثيابُ المتداعية[٢] كلما حيصَتْ[٣] من جانب تَهَتَّكَتْ من آخر. أَكلما أَطَلَّ عليكم مَنْسِر من مناسر أهل الشام أْغلَق كلُّ رجل منكم بابه وانجحر انجحارَ الضَّبَّة في حُجْرها والضَّبُع في وجارِها[٤].. الذليل والله من نصرتموه، ومن رُميَ بكم رمي بأَفوقَ تاِصلٍ[٥]. وإنكم والله لكثيرٌ في الباحات قليل تحت الرايات. وإني لَلعالِمُ بما يُصْلحكم ويُقيم أَوَدَكم[٦]. ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي. أَضرَعَ اللهُ خُدودَكم وأَتْعس

---

[١] لا يستغرب أن يكون الذين يقودهم معاوية ويؤدبهم عمرو بن العاص أجهل الناس

[٢] البكار جمع بكر (بكسر الياء) الجمل الصغير. العمد: الجمل الذي انشق باطن سنامها وظاهره سليم صحيح. المتداعية: المهترئة، التي إذا مسها إنسان انفصلت قطع منها.

[٣] حاص: خاط

[٤] المنسر: عدد قليل من الجند. الجحر والوجار: مسكن الحيوان في حفرة في الحدار أو في الارض. الضب: حيوان من نوع المظاية، الزواحف الصغيرة. الجحر: دخل الحجر

[٥] الأفوق: السهم الذي كسر فوقه: مكان وضعه في القوس. الناصل: الذي ذهب ريشه، ومثل هذا السهم لا يصيب الهدف.

[٦] اعوجاجكم.

جدودكم[1]، لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطلَ، ولا تُبْطلون الباطل كإِبطالِكم الحق.

٨- سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فخطب فيهم وقال: "إِني أَكرهُ أَن تكونوا سبَّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوبَ في القول وأَبلغَ في العُذْر[2]، ثم قلتم مكان سّبِكم إياها: اللهم احْقنْ دماءَنا ودماءهم[3]، وأَصْلحْ ذاتَ بيِننا وبيْنِهم[4]، وُهْدِهم من ضَلالتِهم حتى يعرفَ الحق مَن جَهِلَهُ ويرعويَ عن الغي والعُدوان من لَهِجَ به[5]

٩- من خطبة له عليه السلام، بعد حرب الجمل، في ذم النساء:

"مَعاشر اَلناس، إِن النساءَ نواقص الإيمان نواقص الحظوظ نواقص العقول؛ فأَما نُقصان إيمانهن فقعودُهن عن الصلاة والصيام في أيام حَيضِهن، وأما نُقصانُ عقولِهِنَّ فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وإن نقصان حظوظهن فمواريثُهن على الأَنصاف من مواريث الرجال،

[1] أضرع: أذل. أتعس جدودكم: أشقى حظوظكم: جعلكم الله أذلاء أشقياء.

[2] لو وصفتم أعمالهم فقط لبان تقصيرهم وعارهم، ولعذركم الناس.

[3] حقن الدم: حبسه، أنقذ صاحبه من القتل

[4] أصلح ما بيننا وبينهم

[5] ارعوى: رجع. الغي: الضلال. لهج بالشيء: أولع به، أكثر الكلام فيه .

فاتقوا شِرارَ النساء، وكونوا من خِيارهن على حذر، ولا تُطيعوهن في المعروف حتى لا يَطْمَعْن في المُنكر"

١٠- وخطب الإمام علي خطبة في تزهيد الناس في الدنيا وخوّفهم أمر الآخر فقال:

"أَيَّها الناسُ إِنما الدنيا دارُ مجازٍ والآخرةُ دار قَرار[١]، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تَهْتكوا أستاركم عند من يَعلَمُ أسراركم[٢]. وأَخرجوا من الدنيا قلوبَكم من قبل أن تَخْرُجِ منها أَبدانُكم، ففيها أُخْتُبرتْم ولغيرها خُلقتمِ[٣]. إِن المرء إذا هَلَك قال الناسُ: ما تَرَكَ؟ وقالت الملائكةُ: ما قدَّم[٤]. لله آباؤكم! فقدّموا بَعْضاً يكنْ لكم، ولا تَخلّفوا كلاًّ فيكونَ عليكم[٥].

١١- من خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم. وفي هذه الخطبة آراء كثيرة تشبه ما قال به الأيونيون (الفلاسفة الطبيعيون القدماء):

---

[١] مجاز: ممر. قرار: سكن، دوام.

[٢] هتك الستر: مزقه، كشفه عن المعتاد.

[٣] خلقتم للآخرة.

[٤] الناس يقولون: ماذا ترك الميت بعده من مال، الملائكة يقولون: ماذا عمل الميت قبل موته من الأعمال الصالحة.

[٥] إن العمل الصالح القليل ينفعكم في الآخرة، والمال الكثير الذي تتركونه بعدكم حجة عليكم، لأنكم لم تنفقوه في سبيل الله.

الحمد لله الذي لا يبلغُ مِدْحَتَهُ القائلون، ولا يُحصي نَعْماءَه العادُّون، ولا يؤَدّي حقَّه المجتهدون. الذي لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَم، ولا ينالُه غَوْصُ الفطَنْ. الذي ليس لصِفَتِهِ حدٌّ محدود، ولا نَعْتٌ موجود، ولا وقتٌ معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقُدرته، ونشر الرياحَ برحمته، وَوَتَدَ بالصخورِ مَيْدان أرضِه. أولُ الدينِ مَعْرِفَتُهُ، وكمالُ معرفتِه التصديقُ به، وكمال التصديق بِه تَوْحيده، وكمالُ توحيده الإخلاصُ له. وكمالُ الإخلاص له نفيُ الصفات عنه، لشهادةِ كلِ صفةٍ أنها غيرُ الموصوف، وشهادةِ كلِ موصوفٍ أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قَرَنَهُ[1] ومن قرنه فقد ثنَّاه[2]. ومن ثناه فقد جَزّأه. ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه. ومن أشار اليه فقد حَدّه[3]. ومن حده فقد عده. ومن قال فيمَ؟ فقد ضمنه[4]. ومن قال علامَ؟ فقد أخلى منه[5]. كائن لا عن حدث. موجود لا عن عدم. معَ كل شيء لا بمقارنة، وغيرُ كل شيء لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة. بصير إذ لا منظورَ إليه من خلقه. متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفَقده. أَنشأ الخلق إنشاءً، وابتداءً بلا رَوِيَّةٍ أَجالها، ولا تجربةٍ أُستفادَها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا هَمَاَمة نَفْسٍ اضطرب فيها. أحال الاشياءَ لأوقاتِها، ولاءَمَ ما بين

---

[1] جعل له قريناً أي مثيلا ونظيراً وشبيهاً

[2] ثناه: جعله اثنين، أو جعله) كائنين يتعمقان بصفة واحدة.

[3] حده: جعل له حدوداً، أي في نطاق معين.

[4] من سأل عن الله أين هو، فقد افترض أن الله موجود في المكان الذي سأل عنه فقط

[5] من قال أن الله على العرش مثلا فقد افترض أنه ليس له غيره من الأماكن.

مختلفاتِها، وغرَز غرائزها، وألزمها أشباحها[١]، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء، وسكائك الهواء[٢]. فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيارُه، متراكما زّخاره[٣]، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلَّطها على شَدّه، وقرنها إلى حده.. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحاً أعقم مهبها وأدام مر بها[٤]، وأعصف مجراها، وأبعد منشاها. فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء[٥] وعصفت به عصفا بالفضاء – تَرُدُّ أوَّله إلى آخره، وساجِيَه الى مائره حتى

---

[١] يرى نهج البلاغة أن طبائع البشر مغروزة فيهم منذ الولادة لا مكتسبة. ألزمها أشباحها: خلقها على الصورة التي هي عليها اليوم ثم جعل هذه الأشباح دائمة لها (هذا القول يعني إنكار تطور الأحياء من حال إلى حال).

[٢] القرائن والأنحاء: (هنا) ما يتشابه وما يختلف. أنشأ فتق الأجواء: خلق الجو، الفضاء، أي خلق المكان. السكاكة (بالضم): الهواء الملاقي عنان السماء، أي طبقات الجو العليا أو الأثير الذي تشكلت منه الأجرام السماوية في رأي بعض الفلاسفة.

[٣] التيار: الماء الجاري بشدة. الزخار: الماء الكثير المتحرك في موضعه

[٤] الزعزع القاصفة: الريح الشديدة التي تحدث صوتا هائلا (ضمير التأنيث يعود على الريح وضمير التذكير يعود على الماء). فأمرها برده: أمر الريح برد الماء، أي بدفعه الى الوراء. فتيق: واسع. دفيق: كثير. الريح العقيم: الريح الشديدة الحارة والتي لا مطر فيها (لا رطوبة فيها فلا يكون منها غيم ممطر). وأدام مر بها: جعلها تدوم في مكانها الذي تهب منه. ثم اشتد عصفها واتسع

[٥] حينئذ أمرها بتصفيق (تحريك) الماء. فمخضته مخض السقاء: هزته كما يهز الوعاء (الذي يوضع فيه اللبن الحليب حتى يتجمد منه السمن).

عَبَّ عُبابُهُ ورمى بالزبد رُكامه[1]. فرفعه في هواء مُنْفَتِقٍ[2]، فسوّى منه سبعَ سماواتٍ جعلَ سُفْلاهن موجاً مكفوفاً وعُلياهن شقفاً محفوظاً وسَمْكاً مرفوعاً، بغير عَمَدٍ يَدْعَمُها، ولا دِسارٍ يَنْظِمها[3]. ثم زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً – في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر[4]. ثم فتق ما بين السماوات العلى فملأَهن أطواراً من ملائكته: منهم سجود لا يركعون وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون[5] ومُسَبّحُون لا يَسْأَمون. لا يغشاهم نوم العين ولا سهر العقول ولا فترة[6] الأبدان ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناءٌ على وحيِهِ، وألسِنَةٌ[7] الى رُسُله، ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحَفَظة لعباده والسَّدَنة لأبواب

---

[1] الساجي: الهادىء. المائر: الهائج. عب عبابه: عظم موجه. الركام: المتراكم، بعضه فوق بعض. رمى بالزبد: أخذ يتطاير منه رغاء (رغوة: الماء الممزوج بالهواء، ويكون لونه أبيض) لشدة حركته.

[2] هواء منفتق وجو منفهق: مكان واسع

[3] السمك (بسكون الميم) السقف. العمد جمع عمود. يدعمها يسندها. الدسار: المسمار. ينظمها: يجمعها ويثبتها (أي أن هذه العوالم ثابتة في مكانها من غير وسائل مادية ظاهرة يربط بعضها ببعض)

[4] الثاقب: النجم الشديد الإضاءة. سراج مستطير: قنديل ينتشر نوره إلى مكان بعيد (يقصد الشمس). الفلك الدائر والسقف السائر، كان الأيونيون (قدماء فلاسفة اليونان) يعتقدون أن السماء قبة والنجوم مثبتة فيها. وهذه النجوم تدور لأن القبة نفسها تدور. الرقيم المائر: اللوح المتحرك (كان ثاليس اليوناني يقول أن الأرض لوح سابح على الماء ومن ارتجاجه تحدث الزلازل).

[5] أطوار: أنواع. صافون: قائمون صفوفاً. لا يتزايلون: لا يغادرون أمكنتهم.

[6] الفترة: هدوء ضعف

[7] ألسنة إلى رسله: ملائكة ينزلون بالوحي على رسله.

جِنانه[1]. ومنهم الثابتة في الأرضينَ السفلى أقدامُهم، والمارقة من السماء العليا أعناقُهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم[2]، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة. لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين. ولا يحدونه بالأماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر[3]

---

[1] مختلفون: يذهبون ويعودون، يترددون بين أمكنة مختلفة. الحفظة: جمع حافظ: رقيب، أي الملائكة الموكلون بالبشر يعدون حسناتهم وسيئاتهم. السدنة جمع سادن: حافظ، حاجب، أي واقف على الباب يراقب الداخلين والخارجين

[2] مرق: نفذ، أي أنهم طوال حتى أن رقابهم تصل إلى عنان السماء ثم تنفذ منها أيضاً. الأركان: الجوانب: خارجة من الأقطار أكانهم: هؤلاء الملائكة عظام الجسام حتى أن جسم أحدهم يزيد على اتساع الأرض التي نعيش نحن عليها. المناسبة لقوائم العرش أكتافهم: أي أن قوائم عرش الله على مستوى أكتافهم «يحملون عرش الله» ناكسة دونه أبصارهم: لا يتطلعون إلى الله بأبصارهم. متلفعون تحته بأجنحتهم: يتغطون تحت العرش بأجنحنهم. مضروبة (منصوبة) بينهم وبين من دونهم (فوق: الله) أي أن هيبة الله تمنعهم من محاولة النظر إليه.

[3] لا يجرون عليه صفات المصنوعين: لا يصفونه بصفات خلقه (بصفات البشر). لا يشيرون إليه بالنظائر: لا يشبهونه بأحد من خلقه.

الفهرس